{هلْ جزاءُ الإحسانِ إلا الإحسانُ}

يجلسونَ علىٰ طاولةِ العشاءِ تحتَ الأنوارِ الخافتةِ التى تنبعثُ من المصابيحِ المُدَلَّاةِ من سقفِ حجرةِ المعيشةِ، ينهمكُ كلٌّ منهم في طعامِهِ ولا تجاوزُ عيناهُ صحيفتَهُ التى يأكلُ منها، والأبُ يَتَرَأَّسُ الطاولةَ وولدُهُ يجلسُ منه عن يمينِهِ، وتجلسُ زوجةُ ولدِهِ هذا إلىٰ يسارِه من المنضدَةِ، وتحاولُ في غيرِ جدوىٰ أنْ تُعبّرَ عن مدىٰ استيائها من نوعِ الطَّعامِ المُقدَّمِ لها في تلك الصحيفةِ السوداءِ، والتى تُشبِه الأواني التي كانَ أهلُها يضعونَ فيها الطعامَ لكلابِ قصرِهم المَنِيفِ الفخمِ، الذى كانَ مَضرِبَ المثلِ قبلَ أنْ يخسرَ أبوها كلَّ أموالِه في تجارَتِه المشبوهةِ فى السلعِ الغذائيةِ الفاسدةِ، حتىٰ انكشفَ أمرُهُ؛ فقدَّمَهُ أسيادُهُ كبشَ فِدَاءٍ لنجاتِهم من مأزقِ السجنِ، وكانتْ دائمةَ التأفُّفِ من كلِّ شيئٍ فى بيتِ زوجِها، غيرَ أنَّ حِدَّةَ حميها - والدِ زوجِها - كانتْ مانعةً لها من إظهارِ ما تعانيه من القسوةِ التي ترىٰ أنَّها غيرَ مُبرَّرةٍ؛ فلذا تستنكرُها في داخِلَةِ نفسِها، دونَ أنْ تهمسَ حتىٰ برفضِها لها؛ لعِلمِها بما قد تلقاهُ من هذا الرجلِ المُتغطرِسِ ذي الوجهِ الضخمِ العابسِ، فكانتْ تتأَبَّىٰ فى كلِّ مرَّةٍ يوضعُ فيها الطعامُ علىٰ تلك الطاولةِ التى تُشبِهُ في تصميمِها ومكانِ قرارِها طاولاتِ السجونِ، ولم يكن يمنعُها من هذا إلا أنَّها كانت تستلهمُ الصبرَ من زوجها الذي كان يقنِعها بالتماسكِ حيالَ تصرفاتِ أبيه لقربِ انقضاءِ أجلِه؛ بحسبِ زعمِ الأطبَّاءِ المعالجين له، فكانَ في ذلك سلوىٰ لها عن الرضا بأفعالِه الشائنةِ، تترقبُ الوقتَ لموتِه، وتمضي السنواتُ العشرُ من زواجِها؛ ولم يتحقق لها ما أرادته من زواجِها هذا - أن تبقىٰ في أقلِّ

التقديرات في مستوىٰ معيشتِها الذي اعتادته في بيتِ أبيها قبل افتقارِهم – فتزمجرُ وتنوحُ وتصرخُ في وجهِ زوجِها؛ لتخليصِها من عَنَتِ أبيهِ معها، إلىٰ أنْ تيسَّرَ لها ذاتَ يومٍ الوقوعُ علىٰ مستنداتٍ هامَّةٍ في مكتبِ والدِ زوجها، الذي لم يكن يأمنُ أحدًا علىٰ تنظيفِه سوىٰ تلك السيدةِ العجوزِ، التي عمِلتْ لديه منذُ كانَ ولدُهُ هذا حَملًا في بطنِ أُمِّهِ، فقد كانت تلك السيدةُ مصدرَ أمانِه علىٰ كلِّ ما يخُصُّهُ من مُتَعلقاتِه الشخصيةِ، وكانتْ تلك الوثائقُ التي عثرتْ عليها زوجةُ الإبنِ "منالُ" تشيرُ إلىٰ أنَّ والِدَ الزوجِ "كنعانَ"؛ يعتزمُ التبرُّعَ بأكثرَ من نصفِ ممتلكاتِه لمُنشآتٍ وقفيَّةٍ ليَنتفِعَ عامَّةُ الناسِ في مدينتِهم بها فتركت تلك الأوراقَ في محلِّها لِتُسرعَ نحو غرفتها لتقولَ لزوجها: أحمد.. قُم لخبرٍ لا أظنُّك تعلمُ عنه شيئًا.. فينهضُ من فراشِه مُتلهِّفًا في سُرعةٍ ليقولَ لها: ما الخبرُ، ما الخبرُ.. أجيبي، فتبادِرُه بقولها: إنَّ أباكَ اعتزمَ علىٰ التضحيةِ بك وبراحتِك، وكتبَ في وصيَّةِ موتِه أنْ تؤولَ كلُّ ممتلكاتِه لأعمالِ الخيرِ من بعدِه، وقد وقعت عيني علىٰ تلك الوصيةِ في مكتبِه حين دخلتُ لخادمةِ أبيك "أمِّ سعيدٍ"، وهي تنظِّفُهُ لأطلبَ منها كوبًا من القهوةِ لي، فهرعَ من فراشِه مُتَّجِهًا لمكتبِ أبيه؛ ليتحققَ من صحةِ ما ذكرته عنده زوجتُه، فإذا بأبيه في الغرفةِ، علىٰ كُرسيِّه المتحرّكِ فرجعَ عنها كي لا يلمَحَهُ أبوهُ فيُعَنِّفُه، ولم يكن الابنُ الشقيُّ يدرِكُ سببَ اغتياظِ والدِه من زوجتِه، فانصاعَ لها في خنوعٍ تحتَ وطأةِ الغضبِ الذي ملأتهُ به نحو أبيه زيفًا وزورًا، فلم يكن الرجلُ المُسِنُّ يعتزمُ حرمانَ ولدِه الوحيد من حقِّهِ في الإرثِ كما أوحت له بذلك زوجتُه، فتهيَّأَ "أحمدُ" وعمدَ مع زوجتِه إلىٰ التخطيطِ لنيلِ ما يظُنُّه حقَّهُ من أبيه قبلَ أنْ يموتَ كما أخبرَ بذلك الأطباءُ، فقالت له زوجتُه: ليس لك أنْ تتراخىٰ عن المطالبةِ بحقوقكَ من أبيك ولو بالقوَّةِ، فأجابَها غاضباً: ليس للقوةِ في هذا

مجالٌ.. بل التحايلُ؛ إنها الحيلةُ جميلتي، فقالت وهي تضعُ كلتا يديها علىٰ جانبَى خصرها: وكيف ذلك أيها العبقريُّ الفذُّ؟ فقال: عمَّا قليلٍ سترينَ كيفَ أنَّ المراوغةَ والمكرَ يُثمِرانَ أفضلَ مما يمكنُ أنْ يأتيَ به العنفُ والقوَّةُ! ثم ينصرفُ من عندِها ويُعِدُّ عصيرَ أبيه الذي اعتاد شرابَه قبل دوائِه الذي يتناولُه مساءً لعلاجِ الجلطةِ التي أقعدته في كرسيِّه المتحركِ منذ ما يزيدُ علىٰ العام -ولم يكن يعلم لها أحدٌ سببًا إلا هو، ومع ذلك أبىٰ التصريحَ – ثمَّ قامَ بإعطاءِ أبيه عصيرَه المعتادَ؛ فنام الرجلُ ريثما تناولَه، فابتدرَ ولدُه مفاتيحَ مكتبُه من جيبِه وفتحَه واطَّلعَ علىٰ ما في خزانتِه من الأوراقِ التي بدا له منها صدقَ جانبٍ من كلامِ زوجتِه فأذهلَه ذلك لعلمِه بكذبِ أكثرِ حديثِها عن أبيه وتساءَلَ: لِمَ تنصبُ تلك الفخاخِ لي ولأبي!.. ولأيِّ غايةٍ كانتْ ترمي حين أخبرتني بضرورةِ أخذِ حقي من أبي بالقوةِ أيُّ قوةٍ تلك التي عَنَتها؟! وبعد حينٍ ترك أباهُ علىٰ تلك الحالةِ في كرسيِّه، ثمَّ خرجَ لمعاودةِ لِقاءِ زوجتِه في حجرتهما، فاستقبلته قائلةً :- ماذا صنعتَ؟ فأجابها مبتسمًا؛ وقد رفعَ يدَه في وجهها ومفاتيحُ أبيه بين أصابِعِه: لقد فتحتُ خزانته بعد أنْ وضعتُ له مُخدِّراً في دوائِه، وأخذتُ منها خاتمَ توقيعِه لنقلِ ملكياتِ كلِّ شيءٍ لي، فتعاجلُه بصوتٍ مُرهفٍ وهي تحتضنهُ بقولها: لك وحدك! فيقول ضاحكًا: لا.. أعني لي ولكِ، فقالت: كيف سيتسنَّىٰ لك فعلُ ذلك وأبوك في أعلىٰ درجاتِ وعيِه؟ أجابها: سأعطيه هذا المُخدِّرَ كلَّما أفاقَ حتىٰ يتحقَّقَ لنا ما نريدُه، فتصفِّقَ كالبلهاءِ فرحةً بما تسمعه وتقولُ: أنتَ داهيةٌ.. وتخلو لنفسِها قليلًا فتحدِّثُ نفسَها قائلةً: لن تنالَ بعد الخلاصِ من أبيك أيها الغبي جُنيهًا واحدًا.. ستكون تلك الثروةُ كلُّها لي مع من أُحِبُّ.. وفي خلوةٍ أخرىٰ لزوجِها يُحدِّثه ضميرُه قائلاً: تُرىٰ لأيِّ أمرٍ تعقدينَ النِّيَّةَ! ولمَ تكرهينَ أبي لهذا الحدِّ؟ عمَّا قليلٍ سأستبينُ الأمرَ، ولم يوقظْهما من

شرودِهما إلا صوتُ أبيه ينادي : "يا أحمد"، فنزلَ إليه من غرفتِه ولم يلبث معه إلا وقتًا يسيرًا، ثم صعدَ لزوجته فقالَ لها : إنَّ البقاءَ علىٰ أبي سيفسدُ علينا ما خططنا له، وليس لدينا من سبيلٍ سوىٰ .. سوىٰ .. فتُقول صائحةً في وجههِ: سوىٰ ماذا؟! تكلم.. فيقول كالمُشفقِ باكيًا: أنْ نتخلَّصَ منه.. فتقولُ زوجته: القولُ ما أشرتَ به زوجي العزيز، فإنَّ أباك قد طالَ عمرُه بما لم يتوقعه له الأطباء، وفي بقائِه عذابٌ لنا.. ولمَّا حانت ساعةُ التنفيذِ ليلًا في غرفةِ الأب؛ دخلا عليه بسلاحيهما، وبدأتْ بإطلاقِ النارِ عليه في ضراوةٍ كأنها تثأرُ منه، ثمَّ بعد أنْ اطمأنَّتْ لموتِ الرجلِ انحرفت قليلًا لتصوّبَ سلاحَها نحو زوجها وهي تقولُ ضاحكةً: أظنُّك اكتفيتَ من العيشِ ونعمتَ فيه أكثرَ مما تستحقُّ، وقد حانَ لي أنْ أحيا كما أحبُّ مع من أحبُّ، وأطلقتِ النارَ عليه، فكانَ وقعُ المفاجئةِ عليها أمرٌ أعظمُ مما يمكن استيعابُه أو تخيُّلَه، فوقف ثابتًا أمامَ الأعيرةِ الناريةِ الموجهةِ صوبَ قلبِه، بل وكان يضحكُ ضحكاتٍ هيستيريَّةً، فتفجعها المفاجئةُ الكبرىٰ حين تحوَّلت بنظرِها لأبيه فإذا به يتحركُ من سريره علىٰ قدميه ليُمسكَ بها ويضمَّ إحدىٰ يديها علىٰ الأخرىٰ، ويقولُ: اعتقدتِ سوءً أنَّ حقيقة خيانتك لولدي في بيتِه وفي سريرِه ستظلُّ تخفىٰ عليه، وزعمتِ عبثًا أنَّ مرضي كانَ لفرطِ تناولي الخمورَ، وأنتِ تعلمينَ أني لم أكنْ أعاقرها قطُّ، وحقيقةُ الأمرِ أني أصبتُ بما أُصبتُ حينَ أبصرتُك في فراشِ ولدى مع حقيرِكِ، فقالَ الزوجُ المخدوعُ: لم يكن التخطيطُ للخلاصِ منك شأنًا صعبًا، فغباؤك هو ما أوقعَ بك في ذلك الفخِ، وقد اتفقتُ مع أبي - بعد أنْ اطلعتّث منه البارحةَ علىٰ حقيقتك المرةِ - علىٰ تلك الخطةِ، فنظرت إلىٰ ذلك المُسدَّسِ في يدُها نظرةَ مُستغربٍ في ذهولٍ: فضحك زوجُها وقالَ لها في سخريةٍ: لا تعجبي عزيزتي؛ فقد

أعطيتُكِ مُسدَّسَ الصوتِ الذي كنتُ ألهو به صغيرًا، ثمّ أخذاها بعدَما قيَّدَاها وألقيا بها في قبو البيتِ حتىٰ تلقىٰ الموتَ فيه جوعًا وعطشًا..

بقلم / محمد حمدى الشعار